الرثاء :

الرثاء فن أدبي يُعبّرُ عن الألم والتوجع والتأسف ، وهو باصطلاح أهل اللغة بكاءُ الميت ، وتعدادُ حسناته ، وتمجيدُ صفاته ومناقبه بالشعر والنثر ، وقد عُرِفَ الرثاءُ منذ عصر ما قبل الإسلام « إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مُثنين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصيرٌ محتوم » .(٨٧)

والرثاء من الموضوعات القريبة إلى النفس ، وهو يُشكّلُ ديواناً كبيراً في أدبنا العربي ، وكان للشعراء العباسيين نصيبٌ وافرٌ فيه ؛ إذ نجدهم قد رثوا خلفاءهم وولاتهم ووزراءهم وقوادهم ، ورثوا مدنهم التي نزلت بها الكوارث ، ورثوا حيواناتهم المستأنسة ، وطيورهم الصادحة ، حتى رثى بعضهم شبابه ونفسه وعضواً ذهبَ من جسده ... إنهم جادوا بدموع غزيرة على كلّ شيء عزيز عندهم وأثير لديهم بمقطوعاتٍ وقصائدَ مستقلّة قائمة بذاتها .

لقد حظي الخلفاء بقسطٍ من شعر الرثاء . وأول خليفة بكاه الشعراء هو أبو العباس السفّاح ، وكان أبو دُلامة نديمه المحبوب ؛ لذلك كثر نحيبه عليه ، وأبّنهُ بقصائد كثيرة . أثنى فيها على سياسته وأخلاقه وصفاته ، وذكر خسارة الأمة برحيله ، من ذلك قوله :(٨٨)

---

(٨٧) الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص ٧ .

(٨٨) جمع الجواهر ص ٦٠٨ .

ويلي عليكَ وويل أهلي كلّهمْ وَيْلاً وهولاً في الحياةِ طويلاً
فلتبكينْ لكَ النساءُ بعبرة ولَيبكينْ لكَ الرّجالُ عويلاً
ماتَ الندى إذ متَّ يا ابنَ محمدٍ فجعلته لكَ في التراب عديلاً
إنْ أجملوا في الصبر عنكَ فلم يكنْ صبري ولا جَلَدي عليكَ جميلاً
يجدون منكَ خلائقاً وأنا امرؤ لو عِشْتُ دهري ما وجدت بديلاً

وهذا سَلْمُ الخاسر يذرف الدموع الساخفة على الخليفة المهدي ويشيد بمساعيه الحميدة إبّان حكمه .(٨٩)

وباكيةٍ على المهديّ عبرى كأنّ بها وما جُنَّتْ جنونا
لئن بليَ الخليفةُ بعد عشرٍ(٩٠) لقد أبقى مساعيَ ما بليناً
سلامُ اللهِ غُدْوَةَ كلّ يومٍ على المهديّ حين ثوى رهيناً

وكان أبو نواس وفياً للخليفة محمد الأمين ، لأنه تنعّمَ في أيامه . وحظي بلطفه وإحسانه . وحينما قضى نحبه رثاهُ بشعرٍ صادقٍ منبعثٍ من قلب حزين مرزوء . مثل قوله .(٩١)

ظوى الموتُ ما بيني وبينَ محمدٍ وليس لما تطوي المنيّةُ ناشرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَهُ فلم يبقَ لي شيءٌ عليه أحاذرُ
لئن عُمِّرتْ دورٌ بمَنْ لا أودُّه فقد عُمِّرَتْ ممّنْ أحبّ المقابرُ

طواه الموت وأبعده عنه ، وكان حذراً عليه ، وقد احتفلتْ به المقابر لأنه عظيم وكريم ومن أسرة نبيلة . وهذه صورة لطيفة صاغتها مخيلة هذا الشاعر الذي كان صاحباً وسميراً للخليفة الأمين .

ومن الشعر الجيد في رثاء القوّاد قصيدة الحسين بن مُطير الأسدي في مَعْن بن زائدة الذي اشتهر بجوده وشجاعته . منها قوله .(٩٢)

---

(٨٩) الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص ٥٩ .
(٩٠) بعد عشر : يشير إلى انه ولي الخلافة مدة عشر سنوات .
(٩١) ديوانه ص ٥٨١ .
(٩٢) شعر الحسين بن مطير الأسدي ص ٩٠ .

فيا قبرَ مَعْنٍ، أنتَ أولُ حُفرةٍ من الأرضِ خُطَّتْ للمكارمِ مضجعا
ويا قبرَ مَعْنٍ، كيف واريتَ جودَهُ؟ وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُنزعا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ مَيِّتٌ ولو كان حياً ضقتَ حتى تَصدَّعا

قال أبو هلال العسكري مُعلِّقاً على هذه القصيدة: «إنها أرثى ما قيل في الجاهلية والاسلام»(٩٣). وقال ابن الأثير إنها «أعجبُ ما سمعتُ في هذا الباب»(٩٤). ووصفها ابن خلكان بأنها «من المراثي النادرة»(٩٥). ومن يُمعن النظر فيها لا يجد شيئاً جديداً «يخرج عن سنن الشعراء العرب في الرثاء من الدعاء للميت وقبره بالسُّقيا والعجب للحفرة التي ضمّت الميت وقد كان كالبحر جوداً والجبل حلماً وان الكرم مات بموته وانقطع الخير عن الناس بعد ذهابه».(٩٦) وشارك مروان بن أبي حفصة في رثاء مَعْن بن زائدة، وتعدُّ قصيدته اللامية من القصائد الجيدة في باب الرثاء، إذ صوَّر فيها حزنه عليه، ووَجْدَ أهل العراق والشام ونجد به. فقد خسروا بموته البطولة والشجاعة والبأس والجود والتقوى والإخلاص للعرب والمسلمين. مطلعها:(٩٧)

مَضى لسبيلِهِ مَعْنٌ وأبقى مكارمَ لن تبيدَ ولن تُنالا

ومنها:

وأطلسَتِ العراقُ وأورثَتْها مصيبتُه المجلَّلةُ اختلالا
وظلَّ الشَّامُ يرجفُ جانباهُ لركنِ العزِّ حين وَهَى غمالا
وكادتْ من تِهامةَ كلِّ أرضٍ ومن نجدٍ تزولُ غداةَ زالا
فما شَهِدَ الوقائعَ منكَ أمضى وأكرمَ محتداً وأشدَّ بالا
سيذكرُكَ الخليفةُ غيرَ قالٍ إذا هو في الأمورِ بلا الرِّجالا

ولا ينبي وقائعك اللواتي على أعدائه جُعِلتْ وبالا
ومعتركاً شهدتْ به حِفاظاً وقد كرِهتْ فوارسُه النزالا

---

(٩٣) ديوان المعاني ٢: ١٧٩.
(٩٤) الجامع الكبير ص ٩٥.
(٩٥) وفيات الأعيان ٥: ٢٥٥.
(٩٦) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ١٩.
(٩٧) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٧٩.

ومن القواد الذين رثاهم الشعراء بقصائد عامرة ، محمد بن حُميد الطائي الذي قاتل بابك الخرمي في خلافة المأمون ، واستشهد في احدى المعارك بعد أن أثخن الجراح في الاعداء ونال منهم كثيراً بسيفه البتّار . وكانت قصائد أبي تمام الطائي في رثائه من أجود القصاد وأوفقها في بيان فروسيّة هذا القائد وشهامته وجلده على مصاولة الخصوم ، ونضاله وصموده في محاربة الخارجين على دولة بني العباس ، من ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها (٩٨) :

كذا فليجلّ الخَطْبُ وليفدَح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفضْ ماؤها عذرُ

ومنها :

فتىً ماتَ بين الضَّربِ والطعنِ ميتةً تقومُ مقامَ النَّصرِ اذْ فاتَهُ النَّصرُ

وما مات حتىّ ماتَ مَضْربُ سيفِهِ من الضَّرب واعتلَّتْ عليه القنا السُّمْرُ
ونفسٌ تَعافُ العارَ حتى كأنَّهُ هوَ الكفرُ يومَ الرَّوعِ أو دونه الكفرُ
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رِجْلَهُ وقال لها من تحت أخمصُكِ الحشرُ
غدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائِهِ فلم ينصرفْ إلاّ وأكفانُه الأجرُ
ترؤدي ثيابَ الموتِ حمراً فما أتى لها الليلُ إلاّ وهي من سندسٍ خضرُ

هذا البطل المغوار والمقاتل الجسور لم تفتر عزيمته ولم يفر من الحرب ، بل بقي يضارب ويجالد بكفاءة عالية ومقدرة فائقة الى ان وقع شهيداً وأمسى من أهل الجنة الذين « يلبسون ثياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ واستبرقٍ »(١٠٠)

وللشعراء العباسيين شعر شجيٌ مؤثر في أبنائهم واخوانهم وزوجاتهم وأقربائهم . فمن الذين بكوا أبناءهم بشار بن برد ، إذ فُجع بموت ابنه الصغير محمد الذي كان كالغصن اليانع يتأمل فيه الخير والعون في حياته(١٠١) :

---

(٩٨) ديوانه ٤ : ٧٩ .
(٩٩) الاخمص : باطن القدم
(١٠٠) سورة الكهف ، الآية ٣١ .
(١٠١) ديوانه ١ : ٢٥٤

أجارَتَا لاتجزعي وأنيبي ... أتاني من الموت المطلُّ نصيبي
بُنَيَّ على رغمي وسخطي رزيئتُهُ ... وبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قليبُ(١٠٢)
وكان كريحانِ الغصونِ تخالُهُ ... ذَوَى بعد إشراقٍ يَسُرُّ وطيبُ
دعته المنايا فاستجابَ لصوتها ... فللهِ من داعٍ دعا ومجيبُ !
وقد كنتُ أرجو أنْ يكونَ محمدٌ ... لنا كافياً من فارسٍ وخطيبِ

ومن جيد الشعر في رثاء الزوجات ، وأشجاه ، وأشده تأثيراً وإثارة ، قول محمد بن عبد الملك الزيّات في زوجته التي ماتت وتركت ولداً صغيراً لايصبرُ على فراقها(١٠٣) :

ألا مَنْ رأى الطفلَ المفارقَ أمَّهُ ... بُعَيْدَ الكرى عيناهُ تبتدرانِ
رأى كلَّ أمٍ وابنها غيرَ أمِّهِ ... يبيتانِ تحتَ الليلِ ينتجيانِ
وباتَ وحيداً في الفراشِ تُجنُّهُ ... بلابلُ قلبٍ دائمِ الخفقانِ
فلا تلحياني إنْ بكيتُ فإنَّما ... أداوي بهذا الدمعِ ماتريانِ

ومن الشعراء الذين اشتهروا بهذا اللون من الرثاء الحزين ، ديكُ الجن الذي قتلَ زوجته إثر وشاية كاذبة ، وبقي يبكي عليها بشعرٍ صادقٍ يُعبِّرُ فيه عن مأساته فيها وندمه على الضحية التي ذهبت غدراً وظلماً . قال فيها بعد الندم :(١٠٤)

أشفقتُ أن يُدلي الزمانُ بغدرهِ ... أو أبتلى بعد الوصالِ بهجرهِ
قمرٌ أنا استخرجتُهُ من دَجْنِهِ ... لليلتي وجلوتُهُ من خدرهِ
فقتلتهُ وبهِ عليَّ كرامةٌ ... ملءِ الحشا وله الفؤادُ بأسرهِ
عهدي به مَيتاً كأحسنِ نائمٍ ... والحزنُ يسفحُ عبرتي في نحرهِ
لو كان يدري الميتُ ماذا بعدهُ ... بالحيِّ حلَّ مكانهُ في قبرهِ
غُصَصٌ تكادُ تفيظُ منها نفسُهُ ... وتكادُ تُخرجُ قلبَهُ من صدرهِ

وكذلك اشتهر أبو حيّة النميري في بكاء زوجته والنواح عليها حتى استفرغ جزءاً كبيراً من شعره في رثائها ، قال ابن المعتز : « وكان أبو حيّة تزوج ابنة عم له ، فتوفيتْ عنه ، وكادَ يخرجُ عليها من الدنيا ، وأشعارهُ الجيادُ كلها فيها وفي وصفها في

---

(١٠٢) الجمال : الجانب . القليب في الاصل : البئر ، والمراد هنا القبر .
(١٠٣) ديوانه ص ٦٧ .
(١٠٤) ديوانه ص ٩٦ .

حياتها ، ومراثيها بعد مماتها . وما رأيتُ ذكياً ولا عاقلاً ولا كاتباً ظريفاً إلاّ وهو يتمثل من شعر النميري بشيء»(١٠٥) وللأصدقاء نصيب طيب من الرثاء. يفيض بالوفاء . ومن بديع ماقيل في هذا اللون قصيدة لابي العتاهية في رثاء صديق له يدعى علياً :(١٠٦)

أخٌ . طالما سرَّني ذكرُهُ فقد صرتُ أشجى لدى فكرِهِ
وقد كنتُ أغدو الى قصره فقد صرتُ أغدو الى قبرِهِ
وبَدَّلَ بالبُسُطِ فرْشَ الثرى وريخ ثرى الأرضِ من عطرِهِ
أخو سَفَرٍ مالهُ أوْبَةٌ غريبٌ . وإنْ كانَ في مصرِهِ

ومن الضروب الجديدة في فنِ الرثاءِ في العصر العباسي بكاء المدن التي أصابها الدمار والخراب . وذهب سكانُها الأبرياء ضحايا . ومن أجود ماقيل في هذا اللون قصائد ومقطوعات عمرو بن عبدالملك الوراق العنزي(١٠٧) وقصيدة أبي يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي في رثاء بغداد بعد الفتنة بين الأمين والمأمون ، وقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة بعد ثورة الزنج . ان قصيدة الخريمي التي تصور كارثة بغداد بلغت ١٣٥ بيتاً ، وهي سجلٌ حافلٌ لحادثة داميةٍ مروعةٍ . منها قوله(١٠٨) :

فإنّها أصبحتْ خلايا من الـ انسانِ قد أدميتْ محاجرها
قفراً خلاءً تعوي الكلابُ بها يُنكرُ منها الرسومَ زائرُها
وأصبحَ البؤسُ ما يفارقُها إلفاً لها والسُرورُ هاجرُها

أما ابن الرومي فإنه صوّرَ مأساة البصرة في قصيدة تجاوزت ثمانين بيتا(١٠٩) ، وهي أيضاً سجل لفاجعة كبيرة حلّت بهذه المدينة العريقة وسنذكرها في ترجمته .

ومن الألوان الجديدة التي ظهرت في العصر العباسي مراثي الطيور الصادحة والحيوانات الأليفة التي اقتناها الناس آنذاك واعتنوا بتربيتها في بيوتهم أو في

---

(١٠٥) طبقات الشعراء ص ١٤٩ .
(١٠٦) ديوانه ص ٢٠٦ .
(١٠٧) ينظر تاريخ الطبري ٨ ، ٤٥٩ ـ ٤٧٠ .
(١٠٨) ديوانه ص ٢٧ .
(١٠٩) تنظر دراسات في النص الشعري ، العصر العباسي ص١٥٣ ـ ١٦٩ .

محلات خاصة بها(١١٠) فأبو نواس - مثلاً - رثى كلب صيد لسعته حيّة فمات في أرجوزة بَثَّ فيها حزنه وأساه لفقد سيد الكلاب الذي أغناه عن وسائل الصيد، مطلعها(١١١) :

يابؤسَ كلبي سيّدَ الكلابِ قد كان أغناني عن العُقابِ

وبرز القاسم بن يوسف بهذا النمط من الرثاء. يقول أبو الفرج الأصبهاني :

«إنه شاعر مليح الشعر. قد جعل وكدَهُ في مدح البهائم ومراثيها فاستغرق أكثرَ شعره في ذلك»(١١٢). وأورد له الصولي قصائد كثيرة في هذا الغرض. منها قصيدة طويلة في رثاء قُمري أوّلها(١١٣) :

هل لامريء من أمانِ من ريب هذا الزّمانِ

ومنها :

فالقلبُ فيه كلومٌ من لاعج الأحزانِ
وفي الحشا لاذعاتٌ كمشعل النيرانِ
والمقلتانِ سجومٌ دِماهُما تكفانِ
كانَ المطوّقُ أنساً لأهلِهِ ولجيرانِ

ولابن العلاف قصيدة مشهورة متداولة في رثاء هرّ تناقلتها كتبُ الأدب والتاريخ(١١٤). وهي من روائع الشعر في هذا الغرض. مطلعها(١١٥) :

ياهرُّ فارقتنا ولم تَعُدِ وكنتَ منّا بمنزلِ الولدِ
وكيفَ ننفكُّ عن هواكَ وقد كنتَ لنا عُدّةً من العُدَدِ

---

(١١٠) ينظر «ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي» بحث للدكتور طه محسن في مجلة آداب الرافدين، العدد السابع ١٩٧٦.

(١١١) ديوانه ص ٩٤٣

(١١٢) الأغاني ٢٣ : ١١٨.

(١١٣) أخبار الشعراء المحدثين ص ١٩٣.

(١١٤) وصل الينا منها ٥٧ بيتاً، وهي في الأصل ٦٤ بيتاً كما ذكر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٣ : ٢٣٠)

(١١٥) شعر ابن العلاف ص ٣٢.

بهذا الأسلوب السهل المأنوس يسترسلُ في رثائه لهذا الحيوان الذي ألفه وأحبه. وقد اختلف الدراسون فيها . فمنهم من قال : انها في هرّة حقيقةٌ . وقيل : انه أراد بها رثاء عبدالله ابن المعتز. وقد كنّى عنه بالهر خوفاً من الخليفة المقتدر الذي قتَل ابن المعتز . كما قيل : انه كنّى بالهر عن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات الوزير أيام محنته لأنه لم يستطع أن يرثيه علانية خشية من الخليفة المقتدر . الى غير ذلك من الأقوال ... وقد علّق " ندى على هذه القصيدة بعد أن أورد جزءاً كبيراً منها بقوله : « وأنا شديدُ التعجُّبِ ممَّنْ يزعمُ أن هذه القصيدة رُثيَ بها غير هر »(١١٦)

وهناك مراثٍ تبدو لنا غريبة . وهي من مستجدات العصر العباسي . فمثلاً نجد لمحمد بن يسير مرثيةً في بستانٍ عاثتْ فيه شاةٌ أفلتت لأحد جيرانه(١١٧) . ولأحمد بن أبي كريمة قصيدةٌ في رثاء قميصٍ أغار عليه فأر فقرضه(١١٨) . ولإسحاق الموصلي مرثيةٌ في خُمّارة .(١١٩) ولعبد الصمد بن المعذّل قصيدةٌ في رثاء طُفيلي مات على المائدة بعد أنْ بلع لقمةً حارةً جداً .(١٢٠) . ولمحمود بن الحسين المعروف بكشاجم قصيدة في رثاء قدحٍ انكسرَ له (١٢١) .

ان شعراء العصر العباسي لم يتحرّجوا من رثاء أيّ شيء . مهما كان قدرهُ أو منزلته . مادام هو وثيق الصلة بنفوسهم . وكانوا صريحين في تصوير أحاسيسهم ومشاعرهم . وصادقين في تعابيرهم . قلما تشوبها الصنعةُ أو التكلّفُ .